تمهيد عن الميلاد القرآنى للأمة والحضارة

هذه الأمة الإسلامية خرجت من بين دفتى كتاب.. فمن "رحم" القرآن الكريم ولدت هذه الأمة، عندما صنعت سورة وآياته وصاغت وصبغت "الجوامع الخمسة" التى بلورتها ووحدتها وجعلتها أمة متميز من دون الناس.

فمن القرآن الكريم كان "جامع العقيدة" الواحدة والموحدة للأمة ﴿ **آمن الرسـولُ بِمـا أُنزِلَ إِلَيه من ربه والْمؤْمنُون كُلٌّ آمن بِاللَّه وملائكَته وكُتُبه ورسله لا نُفَرقُ بين أَحـد مـن رسله وقَالُوا سمعنَا وأَطَعنَا غُفْرانَك ربنَا وإِلَيك الْمصير (٢٨٥)** ﴾[١]

وفى القرآن الكريم جاء "جامع الشريعة" الواحدة، الجامعة للأمة فى الأصول والمبادئ والقواعد والقيم وفلسفة التشريع وروح القانون، والحاكمة لاختلاف وتنوع مذاهبها فى الفروع والجزئيات والمتغيرات ﴿**ثُم جعلْنَاك علَى شَرِيعةٍ مِن الأَمرِ فَاتَّبِعها ولا تَتَّبِع أَهواء الَّـذِين لا يعلَمون (١٨)**﴾[٢]

وفى آيات القرآن الكريم جاء الحديث عن "وحدة الأمة، فريضة جامعة لتنوعها فى الشعوب والقبائل والألوان واللغات **إن** ﴿**هذِه أُمتُكُم أُمةً واحِدةً وأَنَا ربكُم فَاعبدونِ (٩٢)**﴾ [٣]

وفى القرآن الكريم شاعت القيم الثوابت، التى صبغت "حضارة الأمـة" – المدينـة – بصبغة دين الإسلام، فاصطبغ " النبى" بـ "المطلق" الأول مرة فى تاريخ الحضارات ﴿ **صِبغَةَ اللَّه ومن أَحسن من اللَّه صبغَةً ونَحن لَه عابِدون (١٣٨)**﴾[٤].

﴿ **الْحقِّ لِكُلٍّ جعلْنَا مِنْكُم شِرعةً ومِنْهاجاً** ﴾[٥].

ولهذه الجوامع الأربعة – فى العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحـضارة – توحـدت "دار الإسلام" فعرف الوطن الإسلامى "الأممية" الجامعة للأقاليم و"الولايات" والأقطار، التـى تتمايز فى إطار وحدة "دار الإسلام".. فهى "المحيط" الجامع الذى يحتضن "جـزر" الـشعوب والقبائل والأجناس واللغات والقوميات.. برسلا إلهيا، وإرادة ربانية، عبرت عنها آيات القرآن الكريم.

([1]) سورة البقرة الآية ٢٨٥.

([2]) سورة الجاثية الآية ١٨.

([3]) سورة الأنبياء ٩٢.

[٤] سورة الأنبياء الآية ٩٢.

[٥] سورة البقرة الآية ١٣٨.

عيد الميلاد:

ولأن هذا القرآن الكريم قد بدأ نزوله فى شهر رمضان.. الشهر الذى كان يتحدث – يتعبد – فيه محمد بن عبد الله ﷺ قبل البعثة، فى غار حراء، مستخلصا نفسه استخلاصا كاملاً من وثنية الجاهلية وجاهلية وثنيتها، وباحثًا عن الدين الحق، ومتخذًا لذلك بقايا الحنيفية من ملة إبراهيم الخيل – عليه السلام – سبيلاً.

ولأن لحظة انبثاق النور القرآنى، قد كانت فى ليلة القدر – إحدى الليالى الوتر فى العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ١٣ هـ. سنة ٦٤٠م – فلقد غدت هذه الليلة – ليلة ميلاد النور القرآنى – خيرا من ألف شهر ﴿ **إِنَّا أَنزلْنَاه فِى لَيلَةِ الْقَدرِ (١) وما أَدراك ما لَيلَةُ الْقَدرِ (٢) لَيلَةُ الْقَدرِ خَير مِن أَلْفِ شَهرٍ (٣) تَنَزلُ الْملاَئِكَةُ والروح فِيها بِإِذْنِ ربهِم مِن كُلِّ أَمرٍ (٤) سلام هِى حتَّى مطْلَعِ الْفَجرِ (٥)** ﴾[1]. فلقد غدا هذا الشهر، الذى شرف بهذه الليلة، وبلحظ انبثاق النور القرآنى فيها، غدا ميقات واحدة من الفرائض الإسلامية – فريضة الصوم – رابع الأركان الخمسة للإسلام.. فإقامة هذا الركن، وأداء هذه الفريضة الإسلامية، فى هذا الشهر العظيم، هو الاحتفال الإسلامى بنزول القرآن الكريم، عيد ميلاد أمة الإسلام، ولحظة التأسيس للدين القيم..

ومع أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم – هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم – ﴿ **إِن عِدةَ الشُّهورِ عِنْد اللَّه اثْنَا عشَر شَهراً فِى كِتَابِ اللَّه يوم خَلَقَ السمواتِ والأَرض مِنْها أَربعةٌ حرم** ﴾[2]

ومع أن شهر رمضان ليس من هذه الأشهر الحرم، فلقد فاق فى الفضل هذه الأشهر الفضيلة، وذلك بسبب نزول القرآن فيه... فالأشهر الحرم: هدنة سلام، لا يجوز فيها القتال.. وموسم تجارات لتنمية زينة الحياة الدنيا... بينما رمضان قد غدا عيد ميلاد الوحى الخالد، والظرف الزمانى لانبثاق نبأ السماء العظيم – القرآن الكريم – الذى ولدت من بين دفتيه الرسالة الخاتمة الخالدة لخير أمة أخرجت الناس – رسالة الدين والدنيا.. والدنيا والآخرة – للأمة الوارثة لجميع مواريث النبوات والرسالات، والمؤتمنة على دين الله الواحد فى مرحلة اكتماله بشريعة محمد ﷺ...

ولهذه الحكمة.. وإعرابا عن هذا التكريم لهذا الشهر المعظم – شهر رمضان – كان إنفراده واختصاصه بالذكر – دون الشهور الأخرى – فى القرآن الكريم.. فلم يذكر من أسماء الشهور فى القرآن اسم سواه...

---

(١) سورة القدر الآيات ١ – ٥.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٦.

ولم يكن اختصاص رمضان بالذكر فى القرآن الكريم لأنه ميقات فريضة الصيام.. فالحج – وهو كالصوم واحد من أركان الإسلام – أشهر معلومات – هى شوال وذو القعدة وذو الحجة – ﴿ **الْحج أَشْهر معلُوماتٌ فَمن فَرض فِيهِن الْحج فَلا رفَثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ فِى الْحج** ﴾ (١).

ومع ذلك لم يذكر اسم أى منها فى القرآن – رغم أن فيها شهرين من الأشهر الحرم.

وكذلك كان الحال مع شهر ربيع الأول، الذى حدثت فيه الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، فتم فيه إنقاذ الدعوة من الحصار، والتأسيس للدولة، والفتح فى الدين.. ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى القرآن.. كما لم يجعله الإسلام ميقات الصيام، كما كان الحال فى الشريعة الموسوية، عندما كان الصم اختفاء بنجاة موسى عليه السلام – من فرعون

***

هكذا.. لا يترك القرآن الكريم الإجابة عن سؤال الباحث عن "حكمة " هذا التوقيت، وذلك الاختصاص لمجرد الاجتهاد والاستنتاج.. فآياته البينات قد تحدثت عن " لحظة الميلاد" للأمة الإسلامية الخاتمة، تلك التى تجسدت فى لحظة "الظهور للدين" الذى ميز هذه الأمة، وجعل من شريعتها الطور الرسالى الخاتم لرسالات الدين الإلهى الواحد، والكمال والاستكمال لمكارم الأخلاق.. ولقد كانت بداية هذه اللحظة هى نزول "الروح الأمين " على "الصادق الأمين" بأولى آيات القرآن الكريم، لحظة "مطلع الفجر" فى ليلة من الليالى الوتر، فى العشر الأواخر من رمضان فى "غار حراء"..

فى هذه اللحظة"، التى أضاءت فيها الأرض بنداء السماء ﴿ **اقْرأْ بِاسمِ ربك الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسان مِن علَقٍ (٢) اقْرأْ وربك الأَكْرم (٣) الَّذِى علَّم بِالْقَلَمِ (٤) علَّم الإِنسان ما لَم يعلَم**﴾ (٢). بدأ نزول القرآن فى ليلة القدر.. وهى لحظة "مطلع الفجر" – الذى هو مولد النهار – وفيها نزل الكتاب – الذى ولدت منه الأمة – عندما خرجت عقيدتها وشريعتها وحضارتها، ووحدتها فى "الأمة.. والدار " من بين دفتى هذا الكتاب الكريم.

ولأن هذا " الميلاد" كان فى شهر رمضان، فلقد كان تكريمه وصومه – دون غيره من الشهور – الاحتفال الإسلامى بهذا العيد لهذا الميلاد...

ولأن هذا الميلاد كان ميلاد الوحى المؤسس للأمة، فلقد شاء الله أن تكون فريضة الاحتفال به – فريضة الصوم – هى مدرسة بناء الإرادة الإسلامية، المجددة، أبداً لفتوة الأمة،

---

(1) سورة البقرة الآية ١٩٧.

(2) سورة العلق الآيات ١ – ٥.

كى تستعيد دائما عافية الميلاد الجديد، وصحة الاجتهاد والتجديد، الكاشف عن فعالية كتاب التأسيس... فقال، سبحانه وتعالى، وهو يشرع لهذه الفريضة ﴿ **شَهر رمضان الَّذى أُنزِلَ فِيه الْقُرآن هدى لِلنَّاسِ وبينَات مِن الْهدى والْفُرقَانِ فَمن شَهِد مِنْكُم الشَّهر فَلْيصمه ومن كَان مرِيضاً أَو علَى سفَرٍ فَعِدةٌ مِن أَيامٍ أُخَر يرِيد اللَّه بِكُم الْيسر ولا يرِيد بِكُم الْعسر ولِتُكْمِلُوا الْعِدةَ ولِتُكَبروا اللَّه علَى ما هداكُم ولَعلَّكُم تَشْكُرون** ﴾[1].

وهكذا نجد أنفسنا أمام "الحكمة" التى جعلت صيامنا فى رمضان، وليس فى شهر من الأشهر الحرم.. وليس، أيضا فى ذكرى نجاة الإسلام ورسوله وأمته – بالهجرة – من الحصار والاقتلاع.. أمام "الحكمة" التى جعلت صيامنا إحياء لذكرى نزول القرآن، الذى مثل "الرحم" الذى ولدت منه هذه الأمة، وعندما خرجت مقوماتها وثوابتها والروح السارية فى حضارتها والصبغة المميزة لعمرانها.. عندما خرج كل ذلك من بين دفتى القرآن الكريم، ومن سور وآيات هذا النبأ العظيم.

فكيف يكون الاحتفال؟

وإذا كان احتفال الناس، أفرادا وأسرا وشعوبا وأمما، بالأعياد والمناسبات، لابد وأن تصطبغ مظاهرة وتعكس وقائعه معانى ودلالات الحدث الذى به يحتفلون، ولذاكره يحيون.. إن كان انتصارا عسكريا، فإن مظاهرة القوة ومعالمها تطبع وقائع الاحتفال.

وإن كان استقلالاً عن الاستعمار، أو تحريرا للثروات، أو استرجاعا للأرض.. إلخ.. إلخ.. صبغت معانى الذكرى احتفالات الذين يتذكرون ويحتفلون.. فإن احتفال المسلمين، عندما يصومون شهر رمضان، بذكرى "اللحظة" التى بدأ فيها نزول القرآن على قلب رسول الإسلام – ﷺ – مطلوب منه من هذا الاحتفال أن يصطبغ بصبغة ذلك الحدث العظيم.. نزول القرآن، الذى كان "الرحم" الذى ولدت منه المقومات التى صنعت أمة الإسلام، ومثلت الروح السارية والضامنة لتواصلها الحضارى على مر الدهور.

إن تأمل هذه المعانى، وتدبر هذه الحقائق، سيضع يدنا على حجم "الخلل.. والقصور" اللذين أصابا ويصيبا "معانى.. ومعالم"" احتفالنا فى رمضان بذكرى نعمة نزول "النبأ العظيم"!

ليس فقط فى تحول شهر الصوم إلى شهر للكسل وتدنى الإنتاج.. بينما هو، فى حقيقته، "مدرسة تربية الإرادة" على الفتوة التى تجعل منه التجديد للطاقات والملكات والقدرات التى تعين الأمة على قهر المخاطر والتحديات، وتنمية معالم الابتكار والإبداع.

---

(1) سورة البقرة الآية ١٨٥

وليس، فقط لوقوف الأكثرين عند "الطرب" لسماع القرآن.. واكتفاء الكثيرين بمجـرد "تلاوته" بينما لا "يتدبره" إلا الأقلون!.. فلا طرب بالسماع، ولا مجرد التلاوة.. بل ولا حتـى الوقوف عند "التدبر للمعاني" بكاف فى الاحتفال الذى يحيى المعنى الحقيقى لهذا العيـد الـذى ولدت فيه أمة الإسلام..

لقد غدت أمانينا – فى التعامل مع القرآن الكريم – أن نكثر من حافظيه.. نفق فى ذلك الأموال، ونعقد له الاحتفالات، ونوزع الجوائز على الحفاظ.. ورغم ما فى ذلك من خير كثير، يربطنا بلغة القرآن، ويقوم ألسنتنا بأسلوبه المعجز وبيانه الأخاذ.. إلا أن الوقوف عند الحفـظ حتى أن المرء ليدهش – من فرط ما وصلنا إليه – عندما يعلم أن جيل الصحابة الفريد، الذى شهد الوحى، وغير به وجه الدنيا ومجرى التاريخ، لم يكن فيه من حفاظ القرآن إلا عدد قليل! لقد كانوا فقهاء للقرآن، لا مجرد حفاظ له، وكانوا عاملين به ومجسدين لمقاصـده، لا مجـرد مرتلين لآياته!

فعبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – يقول: " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن".. أما عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – فهو القائل تعبيرا عن نوع علاقة الصحابة بالقرآن.. ونبوءة بالحال الذى صرنا إليه نحن – " كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القـرآن إلا الـسورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن. وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن، منهم الصبى والأعمى ولا يرزقون العمل به"! (١)

ففى عصر الازدهار، الذى غير فيه الجيل الفريد من الصحابة وجه الـدنيا ومجـرى التاريخ – بالقرآن – كانت الغلبة لفهم القرآن وفقه مقاصده والعمل به.. وليس للحفظ والتكرار بينما ارتبط عصر تراجعنا الحضارى بغلبة منهاج الحفظ وكثرة أعـداد، والمفـاخرة بكثـرة المحفوظات.. وما زلنا – مع شديد الأسف – نقف من القرآن عند الحفظ والتكرار، والاحتفال بالحفظ والحافظين، رغم أن المعاجم والتقنيات الحديثة قد فاقت فى الحفظ ملكات الحفظ!

إن نزول القرآن الكريم إنما مثل لحظة الميلاد لأمة الإسلام، لأنه مثل "النـور" الـذى خرجت إليه الأمة من ظلمات الجاهلية.. ومثل "الهدى" الذى نعمت به بعد حيرة الـضلالات.. وفى كلمة واحدة جامعة، فلقد مثل القرآن الكريم ينبوع "الإحياء" الإسلامى، الصالح دائما وأبدا لطى صفحات الجمود والتقليد والموات، بما يقدم من سبل للاجتهاد والتجديد والإبداع..

فـ "الإحياء" فى كل ميادين العمران – عمران النفس الإنسانية بما يهـذبها ويرتقـى بملكاتها.. وعمران الواقع المادى بما يحسنه ويجمله من ألـوان المدنيـة – هـذا "الأحيـاء"

---

(1) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ج١ ص ٤٠ طبعة دار الكتب المصرية.

الإسلامى هو أخص المصطلحات المعبرة عن رسالة هذا "الينبوع" الـ.ذى نـ.صوم رمـ.ضان احتفالاً بذكرى لحظة نزوله على قلب رسولنا محمد بن عبـ.د الله ﷺ وصـ.دق الله العظـ.يم إذ يقول: ﴿ **يا أَيها الَّذين آمنُوا استَجِيبوا لِلَّهِ وللرسولِ إِذَا دعاكُم لِما يحيِيكُم واعلَموا أَن اللَّـ.ه يحولُ بين الْمرءِ وقَلْبِهِ وأَنَّه إِلَيهِ تُحشَرون** ﴾[1].

فنحن إذ نصوم رمضان، إنما نحتفل بذكرى اللحظة القدسية التى بدأ فيها نزول "النبـ.أ العظيم"، وذلك "الينبوع الإلهى الذى مثل "الرحم " الذى ولدت منه الأمة الخاتمة، ومـ.ن بـ.ين دفتيه خرجت المقومات الثوابت للرسالة العالمية الخاتمة – فـ.ى "العقيـ.دة".. و "الـ.شريعة".. و"القيم" التى ميزت "الحضارة" بالروح الخالدة، رغم تطورها عبر الزمـ.ان والمكـ.ان.. كمـ.ا وحدت "الأمة"، مع التنوع فى القبائل والشعوب والأقوام.. وكذلك وحدت "الأمة" مع التنوع فى القبائل والشعوب والقوام.. وكذلك وحدت "دار الإسلام"، مع التمايز فى خصوصيات الأقـ.اليم والأوطان.

وإذا كانت مصداقية "رسالة" أى احتفال بذكرى لحظة الميلاد، هى فى مـ.دى النجـ.اح الذى يحققه الاحتفال فى حضور "المعنى والمغزى" إلى واقع الذين يحتفلون.. فهل ننجح – فى رمضان – فى استعادة روح "الإحياء" الإسلامى، الذى مثله القرآن العظيم، عندما أخرج هـ.ذه الأمة من الظلمات إلى النور؟

لنحاول.. ولنجتهد.. فلكل مجتهد نصيب.

لقد من الله، سبحانه وتعالى، علينا "بحفظ " هذا الذكر الحكيم ﴿ **إِنَّا نَحن نَزلْنَا الـ.ذِّكْر وإِنَّا لَه لَحافِظُون** ﴾ [2] لكنه افترض علنيا "إقامة " هذا الدين، لنجدد بإقامتـ.ه "الأمانـ.ة" التـ.ى حملناها عندما سعدنا بنعمة التدين بهذا الدين العظيم.

---

(1) سورة الأنفال الآية ٢٤.

(2) سورة الحجر الآية ٩.